مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 03، سبتمبر 2022، صص: 177 - 190
تاريخ الاستلام(2021/12/27) تاريخ القبول (2022/09/15) تاريخ النشر (2022/09/30)

القصة وصناعة الأفكار في الأدب العربي القديم
القصص الطبيّة في أدب القاضي التنّوخي أنموذجا

The Story and the Ideas Making in Ancient Arab Literature
The Medical Stories in Etanoukhas' Literature as a Model

هنية عريف[1]، نجلاء نجاحي[2]

[1] جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، arif.ha@univ-ouargla.dz

[2] جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، nedjahi.nedjela@univ-ouargla.dz

ملخص:

عرف الطب عند العرب نهجا جديدا مختلفا عمّا كان عليه قبل الإسلام، وذلك بالاستناد إلى تعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى التفكر والتدبر في خلق الكون والابتعاد عن الخزعبلات والسحر والتعاويذ، وهو ما أدى إلى ظهور فكر إبداعي جديد لم يكتف بالاعتماد على العقل والاستدلال المنطقي السائد في ذلك الوقت بل وصل إلى درجة الابتكار والإبداع. مرورا بالتجربة والملاحظة والفروض. ولعل القصص الطبية في الأدب شاهد على درجة النضج الذي وصل إليه هذا العلم عندهم. وتأتي هذه الدراسة لتسلّط الضوء على مثال من أمثلة تلك القصص والأخبار الطبيّة؛ تحديدا ما ورد منها في أدب القاضي المحسن التّنوخي، محاولة الإجابة عن الإشكالية التالية: هل يمكن أن تضطلع هذه القصص بصناعة الأفكار ونشرها في المجتمع؟ خاصة ما يتعلّق بالفكر المعتزلي للقاضي التنوخي؟

الكلمات المفتاحية: القصة؛ صناعة الأفكار؛ الأدب القديم؛ قصص طبية؛ العالم الفيزيائي؛ التّنوخي.

المؤلف المرسل: هنية عريف، الإيميل: haniaar30@gmail.com

Abstract:

Medicine with Arabs knew a new method that was distinct from that of the pre-Islamic period. It is based solely on Islamic instructions, which encourages people to contemplate the creation of the universe, far from wrong ideas and deeds. This resulted in the emergence of a new creative thinking that did not rely on the mind or the dominant logical reasoning, but rather reached the level of Enovation through experimentation, observation, and hypotheses. The medical stories in literature witnessed people reaching a level of maturity in this science. Almohsine Ettanoukhi's literature includes stories and medical news. This study is an attempt to answer the following question: can these stories aid in the formation and spread of ideas in society, particularly in relation to Ettanoukhi's isolated intellectuality?

Keywords: story, making ideas, ancient literature, medical stories, physical world, Ettanoukhi.

1-مقدمة

شهد القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي (3هـ – 9م) نموا كبيرا في مهنة الطب، نتيجة لامتداد المدن والتطوّر المنهجي في نظرية الطبّ والمعرفة الطبيّة العملية، وقد حفزتها حركة الترجمة.[(1)]

ومن الصّعب أن يُحدّد ما جاء أولا؟ الحاجة إلى الطب أو الإمداد، لكن يبدو أنّ الاثنين نشآ من مثال وضعته النخبة من النظام العباسي الجديد، إذ يظهر أطباء البلاط الذين تدرّبوا في التقاليد الإغريقية الرومانية في كتب التاريخ وأدب الحكايات في وقت مبكر[(2)]، وشهد هذا القرن أيضا برنامجا منظما تحت رعاية الخليفة والبلاط في بغداد لترجمة النصوص الإغريقية والسريانية إلى العربية، وكان مصدرها الرئيسي الأديرة المسيحية، وكانت لا تزال مزدهرة في بلاد ما بين النهرين والعراق، وكان المسلمون يهتمّون بالترجمة بشكل انتقائيّ، إذ كان عليهم أن يهتموا غالبا بالأدوات الفكرية التي يمكن أن يكون لها استخدام عام كالمنطق، والأدوات العملية مثل الرياضيات والطبّ، والتكنولوجيا الفكرية، وليس باستعادة الماضي الذي لا يشاركون فيه، ولا يلائم أدبه ومعتقداته اهتماماتهم السياسية.

2. خلفية التنوخي ومجتمعه: الحداثة، العقلانية، الحداثة غير العقلانية في البيئة العربية

1-2. كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة:

من نوادر كتب الأسمار والأخبار العربية في سياقه وأهدافه ومراميه، ألّفه القاضي التنوخي في ما يضاهي عشرين سنة، وهو موزّع على أحد عشر مجلدا، ويحوي ما تناثر من أفواه الرجال، وما كان يجري بينهم في مجالسهم وأسمارهم، ومنه جاء اسم الكتاب "نشوار المحاضرة وأخبار

المذاكرة"؛ والنشوار ما يظهر من حسن الكلام والأسمار، وقد تكبّد عناء جمع محتواه مباشرة من أفواه الرجال دون الرجوع إلى الكتب، وقوفا عند عهده على نفسه ألاّ يضمنه شيئا من كتاب، ويمكن إدراج المؤلَّف ضمن المصنّفات الجامعة العامة، والتي تحوي الشعر والخبر والحديث، وما يتفرّع عنها من أنواع وما تتضمّنه من أنماط، كما أنّ المؤلّف اتبع طرائق مختلفة ومتعددة في نظم المراد وتقديمه[3]، وهو يحاكي أمّهات الكتب كالبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والأغاني للأصفهاني، والأمالي للقالي.

وعن أسباب تأليفه فقد اجتمع قديما مع مشايخ عرفوا أخبار الدول، وشاهدوا كلّ عجيب وغريب وكانوا يوردون من كلّ الفنون، فيحفظ ذلك ويتمثّل به، فلما تطاولت السّنون، ومات أكثرهم خشي أن يضيع هذا الجنس، فأثبته في هذا الكتاب، الذي ضمّ أخبار الممالك والدول والملل، كما أراد إبراز فضل العلماء والأدباء في زمنه، وقد احتوت الأخبار التي أثبتها في النشوار على مكارم الأخلاق وأضدادها، وأخبار الخلفاء الأمويين والعباسيين، ووزرائهم وولاتهم وقادتهم وقضاتهم، إضافة إلى بعض الأخبار التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى الأشعار والطرائف والرسائل،

وكان التّنوخي من ندماء الوزير المهلبي، فأثبت أيضا في الكتاب قصصا عدة عن مكارمه وشرف طباعه، ولما كانت فتنة ابن بقية سنة 373هـ هرب إلى عضد الدولة فقلّده القضاء، وكان قد بدأ يجمع الكتاب سنة 360 هـ، لذلك قيل إنه "أوقد كل ما احتطب ليؤلف النشوار"[4]، وقد حقّقه الدكتور المرحوم عبود الشالجي، إذ تمكن من جمع زهاء أربع مجلدات من نصوص النشوار الضائعة، وذلك بالرجوع إلى مصادر نقلت عن النشوار، وهو عمل شاق لم يسبقه إليه أحد حتى زاغ بصره.[5]

2-2. مصادر القصص الطبية للتّنوخي وطريقة تأليفها:

يجب - بداية - ملاحظة نقطتين أساسيتين بشأن هذه القصص؛ تتعلق الأولى بقضية الدّقة التي تتفرّع إلى مسألتين:

✓ **أدبية هذه القصص:**

فمن المعروف أنّ نظام التأليف عند التّنوخي مختلف المصادر، فقد ألّف كتاب "نشوار المحاضرة" دون الرجوع إلى أي كتاب فكانت معظمها أخبارا تلقّفها من أفواه الناس والرواة والأدباء والقصّاصين والمحدّثين، والقصص الطبية أدبية بشكل بديهي، وقد طورت تقاليدها النوعية الخاصة، ويتبيّن هذا بشكل خاص حين نقارنها بملاحظات الحالة عند الرازي (313-251هـ / 865-952 م): علاجات الطبيب العظيم ليست تقريبا مثيرة أو رائعة مثل تلك التي يرويها التنوخي، وتفشل

علاجاته أحيانا، لا ينشأ رازي التنوخي وأبطاله الطبيون الآخرون من ملاحظات الحالة، لكن من حكايات نموذجية، ولا يوجد أسلافهم في أدب الأدب لكن في أدب الطبّ الذي يعتمد بدوره على قصص من أواخر العصور القديمة عن مآثر جالينوس وآخرين.[6] ولم يعد ممكنا غالبا تعقبها حتى في كتابات الأطباء المحترفين، من قبيل "أدب الطبيب للرهاوي إسحاق بن علي الرهاوي)، الذي يبدو أنه كان نشطا في وقت ما من القرن الثالث/ التاسع[7]، ولا شك أنّ التّنوخي أو مصادره كانا على وعي مباشر بهذا إلى حدّ كبير. بحلول القرن الرابع/ العاشر، أنتج الطب الإسلامي اليوناني عدة شخصيات خاصة به معظمها أسطوري، لينافس شخصيات الماضي؛ مثل عائلة بختيشوع من الأطباء، وكانت مهاراتهم كرجال بلاط لا تقل عن مهاراتهم في الطب، وحقّقوا مكانة في التيار الأساسي للأدب.[8]

- ✓ **مصدر هذه القصص ومدى صحّتها:** (أو مؤلفها الحقيقي)

رغم نسبتها لأناس مختلفين، فإنّها كلها يحكيها أو يسجّلها التنوخي الذي ولد في البصرة في 259 هـ/ 940م ومات في بغداد في 384/ 994، وكان قاضيا وأديبا، وفي فترة من حياته من حاشية عضد الدولة الحاكم البويهي للعراق (367-372/ 978-983). وبفضل هذا المسار المهني المتنوع، وشبكة أسرته من المعارف، كان له مجال واسع من المحدثين الشخصيين، لكن ما مدى إخلاصه في إعادة إنتاج ما قيل له، إذ تكشف القصص الطبيّة خاصة عن تشابه لافت في الشكل، هل يمكن أن يكون التنوخي قد ابتكرها ليعكس أفكاره الخاصة، وأعطاها أسانيد مقبولة ليجعلها تبدو أصيلة؟ يقدم الأسلوب مفاتيح قليلة فيما يتعلق بالتأليف، وبينما الكثير من القصص غير الطبية في (الفرج بعد الشدة) أعيد إنتاجها بدقة من مصادر أخرى باقية، يعترف بها التنوخي، فإنّ معظم القصص الطبية متميزة، لا نستطيع فحص مصادر "نشوار المحاضرة" الذي يفخر التنوخي بأنّه لم تدون أية قصة من قصصه من قبل، رغم أنه هو نفسه يعيد استخدام بعضها في "الفرج".

3. **النقد الموجّه للقصص الطبيّة:**

إنّ هذه القصص ليست أدبا صرفا تقنيا، لكنّها تكشف عن اهتمام كبير بالمصطلحات الطبية؛ في التشخيص، وفي العمليات الطبيعية الأساسية التي سيصطلح عليها وتدعى: تفسير عمل العلاجات في السبب والتأثير. هذا هو المتوقع فقط من تصوير أبطال الطب، كما يؤكد بورجل (**J.C. Burgel**).

ولم تكن كتب الطبّ تحوي إلا حقائق عامة عن التشريح وعلم الأمراض والعلاج... إلخ، ومن هذه القواعد العامة كان على الأطباء استنتاج العلاج المناسب لحالة معينة بإجراء منطقي، وخاصة بما يعرف بالقياس، وهذا هو السبب في أنه لم يكن لأحد أن يصبح طبيبا جيدا دون أن يتعلم جيدا قواعد المنطق.[9]

لكن في قصص التنوخي لا يفكر أبطال الطب وحدهم بدقّة، إذ كثيرا ما تفكر الشخصيات الثانوية بدقّة أيضا، بالإضافة إلى ذلك، يعمل الموقف العقلاني الضمني جيدا في مجموع القصص الطبية للتنوخي، رغم حقيقة أنّ الممارسات الموضّحة فيها لا تنبثق كلها من التقاليد العلمية الجديدة، بعضها مؤسس على رؤية مثالية للبدو أو شكل آخر من أشكال الطب الشعبي، وأخرى على أفكار ما سمي بعد ذلك الطب النبوي _رغم أنّ التنوخي لم يستخدم هذا المصطلح_ الذي يستخدم الأدعية ومجموعة أخرى من العلاجات يزعم أنّ الرسول أقرّها.[10]

4. نماذج من قصص الأطباء عند التّنوخي:

4-1. قصة دون نمط أصلي، التوأم السيامي:

أحداثها كانت في بدايات أربعينيات القرن الرابع، خمسينيات القرن العاشر(4 هـ – 10م) في الموصل، ويحكيها رجلان: أحدهما أبو محمد يحيى بن محمد الأزدي، الذي يستشهد به التنوخي تسعة وعشرين (29) مرة في (النشوار) و(الفرج بعد الشدة)، وقد خدم الوالي الحمداني على البصرة ناصر الدولة، ومن المحتمل جدا أن يكون قد شاهد الحدث الذي يصفه، وكان والده كاتب الأمير الحمداني على حلب، سيف الدولة الذي خدمه والد التنوخي أيضا في فترة من مساره، والأزدي واحد ممن ارتبط بهم والده في بلاط الحمداني وبقي التنوخي على اتصال به.

يشير هو ورفيقه الراوي إلى مجموعة من شهود العيان لم تذكر أسماؤهم، وقال أنهم من الرواة "الثقات" في الموصل ومواضع أخرى بشكل مستقل عن هذا، عرفا أن القصة صحيحة لأنها مشهورة جدا ومنتشرة، وليس هناك انقطاع في سلاسل النقل التي سمعاها من خلالها، "الكلمة المستخدمة هي "التواتر"، المصطلح التقني الذي يستخدم لنقل أحاديث النبي ﷺ. يتمّ خلط مختلف مصادر المعلومات وتوجيهها بشكل خفي من خلال رواة بأسمائهم، وتشمل اللّغة في سجلات عديدة الكلام المباشر غير المصقول، التي تصنع لتبدو وكأنّها دوّنت على عجل بالضّبط وهي تسمع، ومن اللاّفت أنّ الفقرة الوصفية الافتتاحية تستبق تساؤلات وتعليقات محتملة، أقدمها في قوسين معقوفين [ ]. وهذا ليس نسخا ساذجا لانطباعات عجلى، إذ ليست هناك حبكة، القصّة في جوهرها وصف على النّحو التالي:

" أخبرنا محمد بن أبي طاهر، قال: أخبرنا عليّ بن المحسن التنوخي عن بيه، قال: حدثني أبو محمد يحي بن محمد بن فهد الأزدي، وأبو عمر أحمد بن محمد الحلاّل، قالا: حدّثنا جماعة من كثيرة العدد من أهل الموصل وغيرهم، ممن كنا نثق بهم، ويقع لنا العلم بحة ما حدثوا به، لكثرته، وظهوره، وتواتره، أنهم شاهدو بالموصل سنة نّيف وأربعين وثلاثمائة -أيام الخليفة المطيع والأمير معز الدولة البويهي- رجلين أنفذهما صاحب أرمينية إلى ناصر الدولة " أبو محمد الحسن بن عبد الله

الحمداني" للأعجوبة فيهما، وكان لهما نحو من ثلاثين سنة، وهما ملتزقان من جانب واحد "من حدّ فويق الحَقْوِ إلى دوين الإبط، وكان معهما أبوهما، فذكر لهم أنهما ولدا كذلك "[11]

يبدو الثلاثون عمرا جيدا لتوأمين ملتصقين لأن يكونا قد كبرا - وهو شيء مدهش في ذاته- ويوحي بأنهما كانا يحظيان بعناية جيدة جدا، توأمين (قطعة بارعة من الحديث المكثف المسجل مؤسسة على سيكولوجيا جيدة): السؤال الذي تستبقه أو تجيب عليه سخيف لكنه طبيعي.[12]

وكنا نراهما يلبسان قميصين وسروالين، كل واحد منهما لباسهما مفردا "مما لابد أنه تطلب خياطة بارعة، ويوحي مرة أخرى بالعناية، أو ربما الاستعراض من جانب أبيهما"[13] إلا أنهما لم يكن يمكنهما لالتزاق كتفيهما وأيديهما في المشي لضيق ذلك عليهما فيجعل كل واحد منهما يده التي تلي أخاه من جانب الالتزاق خلف ظهر أخيه ويمشيان كذلك، وإنما كانا يركبان دابة واحدة، وينبغي أن نتصور أنهما يجلسان على جنب، يبدو جلوس أحدهما خلف الآخر مستحيلا، ولا يمكن أحدهما الانصراف إلا أن ينصرف الآخر معه، وإذا أراد أحدهما حاجة قام الآخر معه وإن لم يكن محتاجا.

وإن أباهما حدثهم أنهما لمّا ولدا أراد أن يفرق بينهما، فقيل له إنهما يتلفان لأن التزاقهما من جنب الخاصرة، وإنه لا يجوز أن يفصلا، فتركهما وكانا مسلمين. فأجازهما ناصر الدولة وخلع عليهما، وكان الناس بالموصل يصيرون إليهما، فيتعجبون منهما ويهبون لهما.

قال أبو محمد: وأخبرني جماعة منهم أنهما خرجا إلى بلدهما فاعتل أحدهما ومات، وبقي الآخر أياما حتى أنتن وأخوه حي لا يمكنه التصرف، ولا يمكن لأبيه دفن الميت، إلى أن لحقت الحيّ علّةٌ من الغمّ والرائحة فمات أيضا فدفنا كلاهما.[14]

حتى هذه النقطة، تمت مناقشة حالة التوأم بشكل مثير وليس علميا، والآن نتتبع وصفا علميا وسيكولوجيا لهما:

وكان ناصر الدولة قد جمع لهما الأطباء وقال هل من حيلة في الفصل بينهما، فسألهما الأطباء عن الجوع، هل تجوعان في وقت واحد؟ فقال إذا جاع الواحد منّا تبعه جوع الآخر بشيء يسير من الزمان، وإن شرب أحدنا دواء مسهلا انحلّ طبع الأخر بعد ساعة، وقد تلحق أحدنا الحاجة ولا يلحق الآخر، ثم يلحقه بعد ساعة، وهذا مرة أخرى ينبغي أن يكون تكثيفا لسلسلة من الأسئلة والأجوبة، إلا إذا كان الأخوان قد خضعا لهذا النوع من الفحص من قبل، ويمكن أن يستبقا ما يرغب الأطباء في معرفته، فنظروا فإذا لهما جوف واحد وسرّة واحدة ومعدة واحدة وكبد واحد وطحال واحد، وليس من الالتصاق أضلاع، فعلموا أنهما إن فصلا تلفا(ماتا). وكان ربما بينهما خلاف وتشاجرا فتخاصما أعظم خصومة، حتى ربما حلف أحدهما لا يكلم الآخر أياما ثمّ يصطلحان.[15]

إنّ أهم ما يميّز هذه الحكاية افتقارها إلى التعليق، رغم روايتها من زوايتين مختلفتين تماما؛ من مشاهدي الأعجوبة ومن زاوية الأب وولديه- يبدو أن كل المشتركين في الأمر يتشاركون في الموقف البراجماتي نفسه.

أراد الأب أن يكون ولداه طبيعيين، ويظهر ناصر الدولة روحا بحثية حقيقية لأمير ذكي، سواء نتيجة الرغبة في منح أطبائه فرصة لعرض براعتهم أو نتيجة حوافز أكثر إنسانية، ترك الأمر للتخمين، فالتوأم تحفة جسدية ونفسية، لكن لغز الشخصيتين أو الروحين الإنسانيتين الذين يشتركان في أجزاء من جسد واحد لا يثير تأملا دينيا أو فلسفيا. لا أحد في القصة لا أحد من الممثلين، ولا أحد من الرواة أو المشاهدين- يستحضر الله أو أي مبادئ عليا.

2-4. **قصص السيرة الذاتية: التشويق والحجة:**

تشكّل القصص التي بها راوي السّيرة الذاتية _الذي هو نفسه المريض_ جنسا أدبيا فرعيا من الحكاية الطبيّة، التي تقدّم تنوّعات مهمة وفيها يأتي الشّفاء بشكل عرضى، وبواسطة الشخص نفسه، وبشكل طبيعي، مثل الشفاء بسمّ الحية، ويتبيّن بعد ذلك أنّ هذه العلاجات لها أساس علمي منطقي، كما هو الحال في القصص التي يكون الطبيب فيها البطل، لكنّ السّمة الحاسمة ليست طبيعة الشفاء، بل حقيقة أنّ هذه القصص ذاتية على العكس من تلك القصص التي تستخدم المنطق وبطلها الطبيب، بلا منطقية غريبة، وهو اكتشاف كبير في فن حكي حكاية مشوّقة، حكاية ناجٍ عن السيرة الذاتية أكثر إثارة من أية قصة مختلفة- بصرف النظر عن براعة وسائلها- تحمل القصص الذاتية الخوف، وتجعل القارئ يخاف مع البطل وليس فقط من أجله. في القصص الذاتية، يمكن أيضا تمييز نوعية الخوف والمعاناة بشكل أدقّ مما يحدث في القصّ العربي الوصفي التقليدي بمعجمه المحدود وغير المحدد إلى حدّ ما في المصطلحات الانفعالية. على سبيل المثال، في قصة سيرة ذاتية عن شفاء تلقائي من شلل تام مزمن، نتيجة لدغة حية، يصل البطل إلى الدرك الأسفل من المعاناة بعد عام من اليأس التام، عمى وخرس، كان أثناءها عاجزا عن القيام بمعظم احتياجاته الأساسية، فهو "لا حي فيرجى ولا ميت فيسلى"، وبعد نوبة من الألم، يجد أطرافه وقد تحركت ويبدأ اختبارها.[16]

ربما يكون للحكايات التي يسمح بها للمريض بوصف خبراته أعلى قيمة وثائقية مباشرة في نقل شيء مما شعر به العليل. وهنا أيضا يكمن الاهتمام الأدبي، حين تتحدث الشخصيات، تتحدث عن مواقفها الخاصة، دون صناعة نظائر متناصة، أو ابتكارها، ويسمح لها بقول ما تشعر به، لا ما ينبغي أن تشعر به. إنها تظل تكرّر أنّ العلة والمعاناة _في المجموعة موضع المناقشة_ لا تعتبران مكونين للشخصية باستثناء مثالنا الأخير -حيث يصبح المشلول زاهدا- أو جديرة بالتفكير

لمصلحتها بمجرد شفاء المصاب. ما يفكر فيه المصاب غالبا، برضا كبير، الطبيعة الانفجارية للشفاء والعدد الاستثنائي من مرات التّطهير التي تصاحبه عادة. ومرة أخرى، هناك عادة تلذّذ لافت بالمصطلحات الطبية [17].

حقيقة أنّ المريض نفسه يستطيع تقديم وصف واضح للكيفية التي يتصرف بها جسده، وتقدم العلاج يشير إلى حقيقة أن التأكيد - ربما غير المتوقع- على الذاتية يسير جنبا إلى جنب مع موقف حرج متأصل في طريقة معالجة القصص.

القصص الذاتية خلافية. إنها تمثل جانبا واحدا من تلك المناظرة، التي تسيطر عليها الفكرة المشجّعة بأنّ لكل داء طبيعي علاجا في الطبيعة، حتى حين لا يوجد طبيب. ويعتقد پورجل أن هذا – إحصائيا- هو الموقف الذي يمثل بأقصى قوة في مجموعات الأحاديث المعتمدة، ويضيف بأنه "كان يستشهد بالحديث النبوي عادة في تقديم الكتب الطبية، ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء. أشعر أنه يبالغ، ربما يكون صحيح البخاري الأكثر ملاءمة للطب، [18] كما نجد فيه التركيز على الدعاء، والتلاوة السحرية للقرآن والقليل من الأدوية الطبيعية مثل: العسل، رغم فكرة ضرورة وجود مجال واسع من الأدوية التي وهبها الله، فإنّ المتفق عليها ثابتة حقا ومحدودة جدا.

توضّح قصص التنوخي موقفا مختلفا إلى حدّ ما، يمكن اكتشاف العلاجات الطبيعية بالصّدفة حتى حين يفشل الأطباء، ولا تقتصر على تلك التي حدّدها النبي" ص"، والحوادث العجيبة تعمل على تأكيد الاتساق الأساسي للطبيعة. يستخدم الأطباء العلاج عادة بالأضداد ليساعدوا على إصلاح أي اختلال في الأخلاط، لكن الطبيعة في ذاتها يمكن أيضا أن تشفي بعلاج الشيء بمثله. تأثيرات ضربة على الرأس، على سبيل المثال، يمكن علاجها بأخرى[19]، أو لدغة عقرب، وهي قاتلة عادة، يمكن أن تعالج البرسام، وهو نوع من التهاب الدماغ [20].

حتى الطب النبوي يعمل عادة بتجانس منهجي، مع التعاويذ أو التلاوات القرآنية (الرُّقى)- على سبيل المثال، مثل تعويذة مكتوبة لمنع الإجهاض، تقتبس الآية 41 من سورة فاطر: إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا...، وأخرى لمنع نزيف الأنف، تقتبس الآية 44 من سورة هود: وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي... [21]

هاتان التعويذتان، على ما يبدو، ليستا مجرّد رقيتين شعبيتين كتبهما موظف كبير [22]،على أصل وقع عليه، إذ يبدو أنهما تعكسان تطبيق التفكير المنطقي أو القياسي على الأذن، باستخدام التلاوات الشافية اقتداء بالنبي" ص" لكنهما مختلفتان جدا عن التلاوات العلاجية القرآنية غير المحددة الموضحة في كتب الحديث. في صحيح البخاري، كتاب الطب به سلسلة من الأبواب القصيرة عن استخدام الرُّقى العلاجية، وتتكون من تلاوة الفاتحة، أو أدعية للنبي "ص"، وليس منها من تذكر المرض الذي تعالجه أو تؤسس أي قياس منسجم. إذا كانت تؤثر فهي تؤثر

بالإيمان وحده، وعلينا ألا نبحث عن أسباب أخرى.[23]

في التقابل بين التلاوات المستخدمة في الأحاديث وأمثلة التنوخي عن التعاويذ العلاجية من الحياة الحديثة، هناك شاهد آخر للنمط وضدّ النمط للنوع الذي أشرنا إليه من قبل. ونجد أيضا شواهد أدقّ، مثل مصطلحات تكون الإشارة فيها أدبية لا دينية، لكن فيها ما يقدم على أنه واقعي يحمل معه تحديا ضمنيا للأفكار الواردة.

لا تقف القصّة في مواجهة العلاج الإيماني النبوي وحده، بتأكيدها على البرهان بدلا من الإيمان، لكن أيضا في مواجهة قصص الحبّ الرومانسي التي جمعها التّنوخي في الباب الأخير من القصص في الفرج بعد الشدة، وفيها يقنع البطل نفسه، وقد مر بأوقات عصيبة، بأنّ عليه أن يبيع جاريته المحبوبة، التي قضى معها سنوات طويلة، ليمنحها فرصة لحياة أفضل. وفي هذه القصص، المرأة لا تنجب ولا تحمل. ويبدو هذا غير محتمل- البطلات الجواري التاريخيات في كتاب الأغاني" لأبي الفرج الأصفهانى كثيرا ما ينجبن عدة أطفال- لكن هذا ضروري لإضفاء مصداقية على الحبكة من منظور القيود الشرعية التي ذكرناها للتو.

المثالي للحبّ الإيمانى شبه الزوجي بين جارية ومولاها الذي يصوره التنوخي في الفرج "جزء من مناظرة مستمرة عن طبيعة الحب الحديث، ويبدو أنّ التنوخي شيّده من مصادر متفرّقة، محاولة تطعيم المزاج الغنائي لقصص الحب البدوي عن محبين يظلون مؤمنين حتى الموت بقصص الحب القاسي عن الحب الظالم بين النبلاء العباسيين والجواري، وتمّ تصوير الاثنين بشكل جيد في كتاب الأغاني"، وقد درسه التنوخي قبل أن يبدأ مساره كاتبا، العاطفة غائبة عن "نشوار". ومع ذلك لم يكن ليجد الشاب العمل بشكل فج في نشوار بشكل طبيعى سبيله إلى صفحات الأدب المهذب، حيث يغطى الحب الفاسد عادة بشكل من الرومانسية، حتى لو جاءت الرومانسية بشكل مؤقت. ومن المفترض، إذا أن التنوخي توقع أن يلاحظ التقابل الضمني بين الحياة والفن.[24]

5. القصة وصناعة الأفكار:

بناء على نمط القصص وعلى أسانيدها، يبدو أنه كان هناك ولع بالطب العلمي بين الناس المشتركين في مظهر معين أو "تقنية فكرية معينة، باستخدام التعبير الذي ابتكره مايكل كوك "**cook; M**" ليصف الطريقة المثيرة التي اعتمدت بها مجموعة من أشكال الإقناع على مذهب المعتزلة في هذا العصر"[25]، وليس فقط على الطبيب العلمي، بقدرته على اكتشاف أسباب معتادة لأعراض غير معتادة، لكن حتى الطبيعة نفسها بقدراتها على تصحيح نفسها، كما أنّ العلاجات العلمية البطولية يمكن التنظير لها ووصفها بشكل يحتمل الصّحة، ليُعاد عرضها لجمهور من

القرّاء في صورة لا تختلف عن القصص التافهة والبسيطة، إنّها طريقة جديدة لتجسيد الأفكار في عمل أدبي، ويمكن أيضا أن تولّد أفكارا جديدة أو طرقا جديدة لتوضيحها. وتتمثل المرحلة الأولى من هذه العملية الإبداعية في استخدام القصص كوسيلة للتفكير إذ يمكن أن تمدّ الأفكار إلى حدود جديدة، أو تنقلها إلى سياقات جديدة، ومن أمثلة دفع الأفكار إلى حدودها؛ التعاويذ التي يصفها التنوخي بأنها وسائط القصص القصيرة التي تخلو من الحبكة، والتي تشكل سلسلة تشهد على اختبار الوصفات، وتوحي بأنّ السمات أو المبادئ العامة التي تشكلها فعالة، ويمكن أن تستخدم في بعض الحكايات- لابتكار رُقى جديدة.

ويختلف هذا اختلافا تاما عمّا نجده في كتب الحديث في القرن الثالث/ التاسع. هناك رُقى مثل العلاجات النبوية الأخرى، تُقدَّم في شكل سلسلة تبدو غير منهجية بشكل متعمّد ومصمّمة لتعيق القياس والاستقراء، وعلى سبيل المثال؛ عند ابن القيم الجوزية (751-691 هـ/ 1292-135 هـ)، تختار الأحاديث من البخاري وأنداده بطريقة تؤكد أنّ عدم السعي للعلاج الطبي خطأ دينى، ونظمت بعد ذلك منهجيا لتدعم نظرية طبية تصلح لذلك الوقت، واستعار أيضا الطب النبوي شيئا من إطار طب جالينوس، مع افتراض أن العلاج شيء ينبغى أن يسعى إليه، وينبغي على المريض أن يفهم الكيفية التي يعمل بها [26].

ربما يكون التنوخى، بوصفه قاصا وليس بوصفه من المعتزلة رائد هذه النزعة، التي يبدو أنها نشأت نتيجة الارتباط المستمر بالأدب، وخاصة قصص الذكاء والحب والاهتمام الإنساني، وكانت الأرضية الخيالية المشتركة لكل المذاهب (كما قد يوحي كتاب "المثل السائر" لابن قتيبة، وكما أوضحت دراسات المفكرين التقليديين التاليين) [27]. على سبيل المثال، لدى ابن القيم الجوزية الكثير مما يقوله في سياق طبي عن الحب والافتتان والعلاج النفسي لهذا الأخير، وتتأسس مناقشاته حول مشاعر المحبين وتفاعلاتهم، وأيضا مشاعر المرضى عموما وانفعالاتهم على أفكار التوازن والطُّرق التي تنبثق من التقاليد الأدبية كما تنبثق من التقاليد الدينية والطبية.

وفيما يتعلق بابتكار أفكار جديدة، ربما لا يتغير بناء حكاية قديمة عن حصافة طبيب كثيرا حين تطبق في الحكايات التي يرويها التنوخي، على الرازي أو شخصية حديثة أخرى، لكن التفاصيل الثقافية تتغير بدرجة ما، والاهتمام بالتفاصيل الإكلينيكية المطعمة بحقائق اجتماعية خاصة حتى كما يصورها رواة ينتمون إلى نخبة اجتماعية لا يمكن فقط السماح بتوليد تقنيات تتحرر من الأعراف الأدبية، كما في قصة المشلول. في نسختي الفرج والنشوار.

تجسد نسخة "الفرج بعد الشدة " البطلين بشكل كاف لتنتج دراما من المشاعر المتعددة والمتنوعة، وليس مجرد مواقف عابرة، وطبقا لنسخة النشوار الرجل مملوك بيزنطي سابق وجندي، يظهر امتنانه العميق لمولاه، ويقال إنه كان جنديا أيضا، وقد رباه من الطفولة، ودربه على

السلاح، ومات بعد أن أعتقه. ومن هنا تأتي رغبته في صيانة أرملته، وهذا يقدم تحولا آخر لعلاقته بها وإحساسه بتفاهتها، ويمنحها في القصة دورا أكبر حين يشفى، تحاول أن تبدأ الحياة معه على أسسها القديمة مرة أخرى بالسؤال، بعد أن قص شاربه: "ما تصنع؟ الساعة يعيبك رفقاؤك. ليصدها (كما في نسخة النشوار) بقوله: "بعد هذا لا أخدم أحدا غير ربي". الكلمات الأولى للمشلول بعد شفائه يمكن اعتبارها صيحة (يا قديم الإحسان، لك الحمد!)، ليكتمل الأمر ويصبح زاهدا، أو هذا ما نستنتجه، لكن أيضا، نتيجة اشمئزازه من زوجته، إذ كان يمنح الاهتمام الأكبر في نسخة "الفرج بعد الشدة" للارتباطات القديمة "عرفان المريض بالجميل" يوضح عدم عرفان الزوجة بالجميل (كما يراه)، ويعطى بعدا جديدا لصيحة "يا قديم الإحسان.

هذه النسخة ليست قصة تحرّر فقط، لكنها أيضا قصة تحوّل، أو بالأحرى قصة يؤكد فيها قرار البطل بتكريس حياته لعبادة الله شرط اعتناقه الإسلام، وامتنانه للرجل الذي رباه لكنها تحتفظ بالسمة الغريبة المتمثلة في أن المملوك السابق الغريب حين يصبح موضوع تبجيل مسلم، يبتعد تدريجيا من رجل عليم ببواطن الأمور (رجل له زوجة ورفاق) إلى شيء غريب. يكرر باستمرار تعبير "يا قديم الإحسان"، لكنه لا يقبل الانخراط في أيّ معتقد شعبي بأنه شفي برؤية النبي "ص" وبلمسة منه وأنه "رجل استجيب لدعائه (ومن ثمّ احتمال أن يكون شفيعا للآخرين).

محدث التنوخي بالقصة، أبو الحسن أحمد بن يوسف بن البهلول، المعروف بابن الأزرق، الذي يستشهد به 64 مرة، نسيب والده ومن المعتزلة. وكان المشلول الذي شفى شخصا مشهورا في بغداد، وفي إسناد نسخة "الفرج بعد الشدة " يقول ابن الأزرق إنه كان صديقا لأبي، وفي نسخة النشوار يستغل ابن الأزرق رفضه فكرة أنه شفي بمعجزة، ويضيف مثالا من خبرته الخاصة عن اشتغال واهتمام العامة بالأحداث الغريبة الغير المألوفة، المجردة من المنطق.

فيقدم المشلول الذي شفي كعينة للعقلانية الفطرية الصادقة، والخروج من تصميم قصة "الفرج بعد الشدة" بتشابهات تيمية مؤكدة وحبكة مغلقة بدقة تجعل إضافة شخصية ابن الأزرق شعارا للحقيقة - واقعيا وطبيعيا وتلقائيا- أداة جديدة في الأدب حيث يُبرز أنه " لا شيء يُرى بشكل متعمد باعتباره فجا أو برينا تماما، ومن النادر أن تُظهر الكتابة العربية بأنها بسيطة وبدائية وأنها نسخة من الحياة بل أكثر تأثيرا .

6. **الخاتمة:**

ختاما نصل إلى حصر نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية:

-يرجّح أن هذه القصص الطبية قد تمّ ابتكارها كما هو الحال في القصص البوليسية، وقصص المغامرات الحسية، والمعجزات، إلى جانب المعجزات الخارقة القديمة .

-جلبت الحكايات العلمية وابتكرت طرقا للإثارة والتشويق في الكتابة الأدبية، وقد قوّى هذا فنّ القصة والحبكة وزادها قوة وجمالا.

-مثّلت الشخصيات الدنيا، والمارقين، وغير الأسوياء، والعبيد، والنساء، والأطفال أحيانا والحيوانات، عناصر أساسية في الحبكات الحسية، ساعد على توسيع قاعدة الوصف السلوكي.[28]

لكنها، في الوقت ذاته،-وفي ظل ظهور النزعة الطبيعية- تبقى قبل الجاحظ بقرن تقنية أدبية حديثة ورفيعة، وبالضرورة، الاختيار الوحيد للقاص، والتي قدمت تيارا لأفكار قديمة، أسطورية وغير منطقية، وقد تمّ استيعاب الحافة الفكرية للنزعة المنطقية وتخفيف حدّتها، مما ساعد على انطلاق وتحرر إمكاناتها الخيالية.

-من خلال الأسانيد التفصيلية التي قدمها القاضي التنوخي يمكن استنتاج أنه قد عمد إلى تقديم عالمين متلازمين متزامنين هما: العالم الواقعي كما هو مصور في هذه القصص، وعالم مبتكَر هو عالم انتماءاته وتوجهاته الفكرية ومرجعياتهما .

-افتقار أغلب القصص الطبية للقاضي التنوخي للتعاليق الختامية.

-غياب التأمل الديني والفلسفي في هذه القصص.

-تكشف هذه القصص الطبية عن تشابه واضح ولافت في شكلها مما يؤكد فرضية أن القاضي التوخي قد ابتكرها.

-إن كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي يعد بحق مدونة ثرية زاخرة بكل الأجناس الأدبية والقصصية مما يجعل منه الأديب الموسوعي ورجل صناعة الأفكار .

عدّ كثير من دارسي السّرد القديم الحكاية الطبية جنسا أدبيا جديدا، لكونها تتميز بعنصر التشويق، وأنها تتيح للراوي فرصة لرفع الستار عن الحياة المحلية آنذاك وكشف مشاهد من خصوصية مجتمعية استثنائية.

مراجع البحث وإحالاته:

(1)- عن حركة الترجمة، انظر:

Gutas Dmitri ;Greek Thought ; Arabi Cuiture; The Gracco Arabic Tmnslation Mouement in Baghdad and Early Abbasid Sosiety (2nd – 4th – 10Th centuries), London and New York , p: 225 ،31

(2)- - انظر:

Savage - Smith Emilie ;Research Interests Islamic science ; medcine and magic 1996 ;p: 452

(3) - سعيد يقطين : الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:1، 1993، ص: 40.

(4) - شارل بلا : النثر العربي ببغداد، ترجمة : محمد العجمي، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ع : 24، ص : 133.

(5) - انظر التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، ج: 1، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 2، 1995، ص : 10 وما بعدها .

(6) - جوليا براي : الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط: 1، 2015، ص: 325 وما بعدها .

(7) - المرجع نفسه .

(8) - المرجع نفسه

(9) - المرجع نفسه.

(10) - اقتبسها ابن الجوزي (ت: 1201/597) في تاريخه. المنتظم، الجزء 14، ص: 151-152.. من محدث مباشر من ابن التنوخي، الذي يقتبسها من التنوخي. ويرى محقق كتاب التنوخي، عبود الشالجي، أنها تنتمي إلى مجلد من المجلدات المفقودة من "النشوار"، ويضعها في الجزء 4، ص : 240- 241.

المحسن التنوخي : نشوار المحاضرة، ج: 4، ص: **240** 11

12 جوليا براي: الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى ، ت : عبد المقصود عبد الكريم ، ص : 330.

13 نفسه ،ص 331.

14 نشوار المحاضرة، 241.

نفسه ،ص 241. 15

(16) - ينظر: التنوخي: النشوار، الجزء: 3، ص : 161-163، والجزء: 4، ص: 210-212، والجزء : 3،ص: 164-165، والجزء: 4، ص 213- 214.

(17) . جوليا براي : الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، ص : 334.

(18) التنوخي: الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، ج: 4، دار صادر بيروت-لبنان، 1978.

ص: 306-307 .

(19) - المصدر نفسه، ص : 222 .

(20) التنوخي : النشوار،، الجزء :3، ص: 149، 151 .

(21) - التنوخي: النشوار"، الجزء :**2**، ص: **327** .

(22) - وأيضا سنن أبي داود وجامع الترمذى وسنن ابن ماجة، قد تقارن مواقف المحدثين الأوائل بشأن استخدام التلاوات العلاجية في طبعات شاملة لما اعتبر بعد ذلك الكتب الستة المعتمدة لأحاديث جمعت في القرن الثالث/ التاسع مثل موسوعة الحديث الشريف (**1999**). ويصعب أحيانا تجنب الكلمة التقليدية "تعويذة للإشارة إلى مثل هذه الممارسات عن المحاذير، انظر: جوليا براي : الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى،
(2004), Savage-Smith . pp. xxii-xxiii

عن التعويذات والسحر الحقيقي، شاملة الاستعانة بالأرواح، انظر: وصف لاحد معاصري التنوخي، ابن النديم (أواخر القرن الرابع/ العاشر) في الفهرست .

(23) - التنوخي: النشوار"، الجزء: 2، ص: 202 .

(24) - جوليا براي : الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم، ص : 343 .

(25) - ينظر : ابن قيم الجوزية، الطب النبوي. تحقيق: عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، د ت.

(26) - انظر:

(1984) Valet (1968), pan 2, Bell (1979) and Lder.

نقلا عن : جوليا براي : الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم .

(27) التنوخي، تشوار، الجزء: 2، ص : 289 .

(28)- التنوخي، الفرج، الجزء 4، ص 259-263 وص 146-147، والفرج، الجزء 3، ص 406-408

قائمة المصادروالمراجع

-ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، د ت.

- المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، ج: 4، دار صادر بيروت-لبنان، 1978.

- المحسن بن علي التنوخي،نشوار المحاضرةوأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، ج: 1، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 2، 1995.

- جوليا براي، الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط: 1، 2015.

- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدّمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:1، 1993، ص: 40.

- شارل بلا، النثر العربي ببغداد، ترجمة: محمد العجمي، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ع : 24.

-Gutas Dmitri ;Greek Thought ; Arabi Cuiture; The Gracco Arabic Tmnslation Mouement in Baghdad and Early Abbasid Sosiety (2nd – 4th – 10Th centuries), London and New York.

- Savage Smith Emilie ;Research Interests Islamic science ; medcine and magic 1996 .